التفسير الموضوعي

نشأته - أطواره - معالمه

إعداد

الأستاذ المشارك بقسم الكتاب والسنة بالكلية

سابقاً

الدكتور محمود بسيوني فوده

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم رسله وعلى آله وأصحابه ومن والاه

وبعد

فمما لاشك فيه أن القرآن الكريم هو دستور المسلمين فى عاجلهم وآجلهم ولسنا فى حاجة بسط القول عن مكانة القرآن الكريم وشأنه لدى المسلمين منذ نزوله على خاتم رسله من أربعة عشر قرناً ولقد تنبه المسلمون من أول عهده بهم لهذا. فعكفوا على كتاب ربهم. عكفوا عليه لتدبره وحفظه ومعرفة ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. ولقد نبه الله عباده على عظيم نعمته بهذا المنزل على رسول الله بقوله

« لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(١).

والذكر هنا هو الشرف والعزة والمكانةوهداية الخلق إلى الحق فى الدنيا والآخرة. حقا لا ذكر ولا شرف ولا مكانة للمسلمين إلا بهذا الكتاب يقول فضيلة الأستاذ سيد قطب فى تفسيره لهذه الآية الكريمة

«ولقد كان به ذكر العرب ومجدهم حين حملوا رسالته فشرقوا بها وغربوا. فلم يكن لهم قبله ذكر. ولم يكن معهم ما يعطونه للبشرية فتعرفه لهم وتذكرهم به. ولقد ظلت البشرية تذكرهم وترفعهم. طالما استمسكوا بهذا الكتاب وقادوا به البشرية قروناً طويلة. فسعدوا وسعدت بما معهم من ذلك الكتاب. حتى إذا تخلوا عنه تخلت عنهم البشرية وانحط فيها ذكرهم».

ثم يقول «وما يملك العرب من زاد يقدمونه للبشرية سوى هذا الزاد. وما يملكون من فكرة يقدمونها للبشرية سوى هذه الفكرة فإن تقدموا للبشرية بكتابهم ذلك عرفتهم وذكرتهم ورفعتهم لأنها تجد عندهم ما تنتفع به. فأما إذا تقدموا إليها عربا فحسب بجنسبة العرب فما

---

(١) الأنبياء ١٠

هم؟ وما ذاك؟ وما قيمة هذا النسب بغير هذا الكتاب؟ إن البشرية لم تعرفهم إلا بكتابهم وعقيدتهم وسلوكهم المستمد من ذلك الكتاب وهذه العقيدة.

نقول : لقد أدرك المسلمون الأول هذا الأمر إدراكاً تاماً ووعوه تماماً. فعكفوا عكوفاً تاماً على كتاب ربهم حفظاً وتدبراً وعملاً وتعبداً وامتثلوا لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «كتاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذى لا تزيغ به الأهواء[٢] ولا تلتبس به الألسنة[٣]، ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضى عجائبه[٤].

وكان من الطبيعى أن تتمخض هذه العناية التى لا تعرف لأى كتاب على وجه الاطلاق ليس فى عصر دون عصر ولكن فى العالم البشرى كله كان من الطبيعى أن تزخر المكتبة الإسلامية بالمؤلفات تلو المؤلفات هادفة خدمة كتاب الله. فلا نجد قرنا من الزمان منذ نزول القرآن قد خلا من مصنفات قيمة دبجتها أقلام المسلمين غايتها خدمة كتاب الله تبارك وتعالى. ولقد وضع النحويون قواعدهم وكذلك البلاغيون كل من هؤلاء كانت غايتهم دائماً تنصب نحو كتاب الله تفسيراً وتأويلاً.

هذا وعندما ننظر للرعيل الأول من المسلمين نجد أنهم هم الرواد الأول بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تدبراً لآيات الله واستنباطاً روى عن أبى عبدالرحمن السلمى[٥] انه قال «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن. كعثمان بن عفان. وعبدالله بن مسعود وغيرهما: إنهم كانوا إذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات. لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً. وقد يقول قائل إن بعض الصحابة كان يتحرج أن يفسر القرآن الكريم ويتخوف أن يقول فيه قولاً هو من اجتهاده. كما روى عن أبى عبيد القاسم بن سلام باسناده عن ابراهيم التيمى. أن أبا بكر الصديق سئل

---

(٢) أى لا تميل عن الحق

(٣) أى لا تتعثر عليه السنة المؤمنين ولو كانوا من الأعاجم

(٤) رواه الترمذى

(٥) هو عبدالله بن حبيب التابعى المتوفى سنة ٧٢ هـ

عن آية فى القرآن الكريم فقال «أى سماء تظلنى. وأى أرض تقلنى إذا أنا قلت فى كتاب الله ما أعلم. وروى أبوعبيد أيضا باسناده عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر.

«وفاكهة وأباً» فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب. ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف يا عمر. وروى ابن جرير بإسناده عن ابن أبى مليكة أن ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها. فأبى أن يقول فيها. وروى أبوعبيد عن أبن أبى مليكة قال: سأل رجل ابن عباس عن يوم كان مقداره ألف سنة. فقال له أبن عباس فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة. فقال له الرجل: إنما سألتك لتحدثنى ـ فقال ابن عباس: هما يومان ذكرهما الله فى كتابه الله أعلم بهما. وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب. أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: انا لا نقول فى القرآن شيئاً. وقال ابن شوذب حدثنى يزيد بن أبى يزيد قال: كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس. فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأنه لم يسمع وروى ابن جرير باسناده عن عبيدالله بن عمر قال: لقد أدركت فقهاء المدينة. وانهم ليعظمون القول فى التفسير منهم سالم بن عبدالله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع»[٦].

أقول إن هذه الروايات إن صحت فهى تدل على أن أصحاب رسول الله كانوا لا يقولون إلا بما يعلمون. فهو محمول على الحيطة والحذر وعدم القول فى كتاب الله بالهوى والدليل على ذلك ان كثيرا من هؤلاء الذين نقل عنهم انهم كانوا يتحرجون القول بالتفسير ممن اشتهروا بالتفسير.

يقول ابن كثير تعليقاً على هذه الآثار وغيرها «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها، عن أئمة السلف. محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه ـ فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً. فلا حرج عليه. والدليل على ذلك. أن كثيراً من أصحاب رسول الله اشتهروا بالتفسير. ومنهم الخلفاء الأربعة. وعبدالله بن عباس. وعبدالله ابن مسعود. وأبى بن كعب وأبو موسى الأشعرى وغيرهم.

أما فى عهد التابعين . فقد انتشرت مدارس التفسير فى كل مصر. وأقبل المسلمون على دراسته وتفسيره. ولعل تحرج هؤلاء يعود إلى الاحترام العميق والتورع الشديد نحو كتاب الله.

---

(٦) هذه بعض الآثار التى نقلناها عن بعض علماء السلف من تفسير القرآن العظيم لابن كثير جـ ١ ص ٨ ـ ٩

معنى التفسير الموضوعى

عندما نعايش مكتبة التفسير والدراسات القرآنية منذ عصر التدوين إلى وقتنا الحاضر نلاحظ أن جل تفاسير القرآن الكريم. قد سارت على منهج واحد وهو السير مع كتاب الله آية آية كما هو فى ترتيب المصحف الإمام.

والناظر لكتاب الله تبارك وتعالى. يجد أنه قد اشتمل على جميع أوجه الأسرار البلاغية. ومن هذه الأوجه. الإيجار والإطناب. والاجمال. والعموم والخصوص والتدليل. فما جاء موجزاً فى موضع قد يبسط فى موضع آخر. وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التأييد مرة أخرى ولكى نقرب الأمر إلى الأذهان نضرب على ذلك مثلاً وهو أن الله سبحانه وتعالى فى كتابه. حدثنا عن الأمم الغابرة. وعن بعض النبيين منذ آدم إلى أن بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو ما يمكن أن يعنون له بالقصص القرآنى وإذا نحن نظرنا إلى قصة نبى من أنبياء الله. نجد أن الله سبحانه وتعالى قد حدثنا عنه فى كثير من آيات القرآن وسورة لقد حدثنا الله عن موسى فى سورة النازعات. وفى سورة القصص. وفى سورة النمل. وفى سورة طه. وفى سورة الشعراء. وفى سورة الأعراف. وفى سورة البقرة. وجاء الحديث عنه موجزاً فى بعض السور ومسهباً فى بعضها الآخر ولعلنا ندرك أن معظم قصص الأنبياء سارت على هذا المنوال لحكم جليلة المقام لا يتسع لذكرها الآن ولكنها ولاشك من الأسرار الآلهية فى كتابه ووجه من وجوه إعجازه.

ومثال آخر إذا نظرنا إلى ما نزل بشأن الأطعمة والمحرمات منها نجد أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله بمكة آية الأنعام قال تعالى

« قُل لَّآ أَجِدُ
فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ
مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا

أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ...»(٧).

ثم أنزل الله بعد ذلك فى هذا الموضوع «فَكُلُوا

مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»(٨).

ثم أنزل الله سبحانه

«إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»(٩).

وأخيراً أنزل الله سبحانه وتعالى بشأن هذا الموضوع.

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ

(٧) الأنعام ١٤٥

(٨) النحل ١١٤ ـ ١١٥

(٩) البقرة ١٧٣

وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »(١٠).

وفيما يتعلق بموضوع الأشربة. فقد أنزل الله سبحانه وتعالى بشأن موضوع الخمر

« * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ »(١١).

ثم أنزل الله فيه أيضا

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ »(١٢).

ثم جاءت آية المائدة لتحسم هذا الأمر. ولتبينه بياناً شافياً قال تعالى :

---

(١٠) المائدة ٥

(١١) البقرة ٢١٩

(١٢) النساء ٤٣

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ
إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ
عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ »(١٣).

ولعل هذه الأمثلة التى ذكرناها آنفاً قد قربت إلى أذهاننا كثيراً معنى التفسير الموضوعى فهو جمع ما تكرر فى القرآن الكريم فى موضوع واحد ثم تقابل الآيات بعضها ببعض كى يستعين الباحث بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً. وما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملاً. وليحمل المطلق على المقيد والعام على الخاص ويطلق على التفسير الموضوعى أيضا. تفسير القرآن بالقرآن. ويرى العلماء بحق أن تفسير القرآن بالقرآن هو المصدر الأول لتفسير القرآن على وجه الاطلاق. فمن يتعرض لتفسير القرآن الكريم. عليه أولاً أن ينظر فى القرآن نفسه لأن القرآن كما يقولون يفسر بعضه بعضاً

مدى الحاجة للتفسير الموضوعى

والتفسير الموضوعى له أهمية قصوى ندرك ذلك عندما نتدبر فيما روى عن على رضى الله عنه أنه رأى قاصاً فى المسجد فقال له أتعرف الناسخ من المنسوخ. قال لا فقال له على هلكت واهلكت ومن فوائد التفسير الموضوعى:

١ ـ التفسير الموضوعى يبعد المفسر عن الشطط والزلل واعمال العقل فى أمر قد بين الله مراده فيه.

٢ ـ التفسير الموضوعى يعتبر بحق الزاد للدعوة والدعاة فهو يعين الدعاه على نشر هدى الله بين الأمم وخاصة فى عصرنا الحاضر.

٣ ـ يستطيع الباحث أن يلم بأطراف أى موضوع عن طريق التفسير الموضوعى وهو أمر يحتاج إليه كل باحث فى الدراسات القرآنية بل ويحتاج إليه المحاضر والخطيب والفقيه والمؤرخ.

---

(١٣) المائدة ٩٠

يقول الأستاذ الدكتور احمد ابراهيم مهنا فى الموازنة بين تفسير القرآن آية آية على حسب الترتيب فى المصحف الإمام والتفسير الموضوعى الذى نحن بصدده «إن منهج كتب التفسير التى بين أيدينا هو السير مع كتاب الله آية آية بالترتيب الموجود فى المصحف. وهو منهج يفيد حفاظ القرآن ويفيد كذلك من له المام بالثقافة الإسلامية يمكنه من ربط ما تفيده الآية المتعلقة بموضوع معين بما يوضحها من معلوماته الخاصة بالموضوع نفسه. ولكنه لا يفيد مطلقاً. هؤلاء الوافدين الجدد. من طلاب المعرفة عن طريق كتاب الله ذلك لأنهم.

١ ـ درجوا على الدراسة الموضوعية التى تلم بأطراف القضية أو المشكلة. وتربط بين أجزائها لتعطى القارئ وحدة متكاملة وشتان بين المنهجين.

٢ ـ يضاف إلى ذلك انهم لم يكن لهم إلف يعول عليه بالكتاب الكريم من قبل وإذا كان لبعضهم نوع من المعرفة به. فهى المعرفة التى تدعوهم إلى البعد عنه وعدم الإقبال عليه. لكثرة ما سمعوا من نقد أساتذتهم له وتشكيكهم فى الحاجة إليه. وفى جدواه للعصر الذى نعيش فيه. وكذلك لم يكن لهم دراسة بالثقافة الإسلامية تشجعهم على محاولة الدراسة المستقلة الرائدة ليصلوا عن طريقها إلى مرفأ أمين ولذا وقفوا حيارى لا يدرون أى طريق يسلكون»[١٤]: ونحن إذ نوافق الدكتور مهنا فى تحمسه لهذا اللون من التفسير فإننا نحب أن ننوه هنا إلى أنه مهما كانت أهمية هذا اللون من التفسير فما ينبغى لنا أبداً أن نغفل تفسير القرآن آية آية على حسب ترتيب الآيات والسور فى المصحف. وكيف نتغاضى أو نستهين بتفسير القرآن آية آية على حسب الترتيب فى المصحف وهو أمر يتفق مع ترتيب الله لكتابه فمما هو معلوم أن ترتيب الآيات فى المصحف وعلى حسب وضعها الآن ليس عملاً اجتهادياً ولكنه بالتوقيف عن رسول الله عن جبريل عن الله سبحانه. إذن تفسير القرآن آية آية بالترتيب المعهود أمر من اللازم حدوثه ولا مانع مع ذلك أن نهتم بالتفسير الموضوعى وسنبسط القول فى هذا الموضوع فيما بعد إن شاء الله.

---

(١٤) الأسانيد فى القرآن الكريم ص ١٢ من مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية

نشأة التفسير الموضوعى وأطواره

قد يظن بعض الناس. أن التفسير الموضوعى لون جديد طرأ على الدراسات القرآنية. ولكن الناظر المتفحص. يجد أن هذا اللون من التفسر قد وضع أسسه. واللبنة الأولى فيه. رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه. ودليلنا على ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فسر القرآن بالقرآن.

روى ابن أبى حاتم بإسناده عن ابراهيم عن علقمة عن عبدالله قال لما نزلت «ولم يلبسوا إيمانهم بظلم» شق ذلك على أصحاب رسول الله وقالوا. وأينا لم يظلم نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما تظنون. انما قال لأبنه «يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم».

وروى البخارى عن عبدالله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت «إن الشرك لظلم عظيم».

ونستطيع أن نستنبط من هذا الحديث . أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرجع إلى القرآن نفسه تبيينا وارشاداً للناس لمراد الله فى كلامه هذا وقد اتفق أهل العلم على أن الدارس للقرآن الكريم. ينبغى عليه ألا يتعرض لتفسير القرآن بالسنة أو بقول صحابى. أو بقول تابعى إلا بعد الرجوع إلى القرآن نفسه ذلك أن تفسير القرآن بالقرآن هو المصدر الأول للتفسير على وجه الاطلاق.

وإذا عدنا إلى كتب التفاسير التى صارت على تفسير القرآن آية آية بالترتيب الموجود فى المصحف. فإننا نجد أنهم لم يغفلوا عن هذا اللون من التفسير. وكيف يغفلون وهو المصدر الأول لتفسير القرآن الكريم بل إنه من يغفل هذا اللون من التفسير قد يقع فى خطأ شديد. وقد يجتهد فيا لا مجال للرأى فيه. وقد يفسر القرآن بالهوى وكل ذلك يبعده عن التفسير بالرأى المقبول. ويدخله فى اطار التفسير المذموم هذا ونستطيع أن نقول بعد نظر وتأمل فى كتب

التفسير وفى تراثنا العظيم للدراسات القرآنية إن التفسير الموضوعى سار جنباً إلى جنب مع التفسير القرآنى آية آية ولا يتأتى من يعتد بتفسيره أن يغفل هذا الأمر أبداً.

وأستسمح القارئ الكريم. لأذكر له بعض الشواهد التى تؤيد ما ذهبنا إليه فلنعايش معاً كتب التفسير قديما وحديثاً لنتثبت من هذا ولتطمئن قلوبنا.

ولنبدأ بأحد أعلام التفسير بالمأثور. وهو الحافظ عماد الدين . أبو الفداء اسماعيل بن كثير القرشى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ فبعد قراءة متأنية فى هذا التفسير العظيم وهو تفسير القرآن العظيم تبين لنا أنه عنى كثيراً بهذا اللون من التفسير واستشهد بالآيات القرآنية التى تعين أو تفصل أو توضح) آية آية يشرحها. ومن الطبعى أن يذكر هذا المفسر العظيم. تفسير القرآن بالقرآن. وكيف لا وهو جزء من منهاجه فى كتابه ـ فمنهاجه كما نعلم فى تفسيره ـ هو التفسير بالمأثور. وأول باب للتفسير بالمأثور وهو تفسير القرآن بالقرآن كما وضحنا ذلك آنفاً وهلم معى إلى هذا التفسير لنتثبت مما قلناه.

يقول فى تفسير قوله سبحانه

« قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ »(١٥).

يقول بعد أن فسر هاتين الآيتين

« قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا

(١٥) البقرة ٩٤ ـ ٩٥

قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ
الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾»(١٦).

فهم عليهم لعائن الله تعالى. لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه. وقالوا لن يدخل الجنة إلا ما كان هوداً أو نصارى. دعوا إلى المباهلة. والدعاء على اكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين. فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه. لكانوا أقدموا على ذلك فلما تأخروا علم كذبهم. وهذا كما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة فقال الله تعالى

«فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾»(١٧)

فلما رأوا ذلك. قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم. وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون. فضربها عليهم. وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً ومثل هذا المعنى القريب قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين.

«قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ»(١٨)

---

(١٦) الجمعة ٦ ـ ٨

(١٧) آل عمران ٦١

(١٨) مريم ٧٤

أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه[١٩] ونلاحظ من هذا النص أن ابن كثير تطرق إلى موضوع الوعيد والتحدى من الله لهؤلاء المستكبرين المعاندين من أهل الكتاب. وأتى بالآيات التى تناولت هذا الموضوع وربط بعضها ببعض. وكما هو واضح فهذا التفسير هو لون من الوان التفسير الموضوعى.

ومثال آخر يقول فى تفسير قوله سبحانه :

« أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ »[٢٠]

يقول فالقوم اذمهم الله بنبذهم العهود. التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها. والقيام بحقها. ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذى فى كتبهم نعته وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه ومناصرته ومؤازرته. كما قال تعالى :

« ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ »

وقال هاهنا : « وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ »[٢١].

أى طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيدهم بما فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم»[٢٢].

وما ذكرناه هو لأحد اعلام التفسير بالمأثور كما قلنا وقد بدأ نابه لأن الصلة وثيقة بين

---

(١٩) تفسير القرآن العظيم جـ ١ دار المعرفة للطباعة والنشر

(٢٠) البقرة الآية ١٠٠

(٢١) البقرة ١٠١

(٢٢) المرجع السابق ص ١٣٤

بحثنا والتفسير بالمأثور ولنرجع إلى الوراء قليلاً لنعايش تفسيراً بالرأى المقبول غنى كثيراً بالتفسير الموضوعى وهذا التفسير هو «مفاتيح الغيب لأبى عبدالله محمد بن عمر بن الحسين ابن الحسين بن على الرازى الملقب بفخر الدين والمتوفى سنة ٦٠٦ هـ هذا المفسر العظيم اهتم بهذا اللون من التفسير وعالج به كثيراً من المسائل التى تطرق إليها فى قضاياه وإليك بعض الشواهد على ذلك من تفسيره الكبير فمثلاً يقول فى تفسير قوله تعالى من سورة البقرة

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ»(٢٣).

فهو يقول ما نصه

المسألة الثالثة اختلفوا فى أن ابليس هل كان من الجن قال بعض المتكلمين ولاسيما المعتزلة إنه لم يكن منهم. وقال كثير من الفقهاء انه كان منهم واحتج الأولون بوجوه.

احدها ـ انه كان من الجن فوجب ألا يكون من الملائكة. وانما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى فى سورة الكهف «إلا ابليس كان من الجن» واعلم أن من الناس من ظن انه لما ثبت انه كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة. لأن الجن جنس مخالف للملك. وهذا ضعيف لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمى الجنين جنيناً لاجتنانه. ومنه الجنة لكونها ساترة والجنة لكونها مستترة. ومنه الجنون لاستتار العقل. فثبت ان هذا القدر لا يفيد المقصود فنقول: لما ثبت أن ابليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ»

(٢٣) البقرة ٣٤

وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملك[٢٤] او ونلاحظ من هذه النص الذى نقلناه من تفسير الرازى انه رحمه الله سار فى معالجته هذه القضية على المنهج الموضوعى مستنداً إلى آيات القرآن الكريم. ومن سور أخرى. لإثبات رأيه حول ابليس أكان من الجن أم لا. وأيضا فى اثبات الفرق بين الجن والملك ثانية ونكتفى بهذا الشاهد من تفسير الرازى لننتقل إلى تفسير آخر وهو تفسير الجامع لأحكام القرآن لأبى عبدالله بن احمد الأنصارى القرطبى ولقد قرأت فى هذا التفسير الكبير كثيراً فوجدت أن هذا المفسر لم يغفل المنهج الموضوعى. والإستناد إلى آيات القرآن الكريم فى تفسيره. وكل ذلك يؤكد ما أرتأيناه وهو أن التفسير الموضوعى ليس وليد العصر الحاضر ولكنه سار مع التفسير التقليدى مند العهد الأول يقول القرطبى رحمه الله فى تفسيره وفى أمر يمكن أن يعنون له أوصاف قلوب الكفار فى القرآن[٢٥] اذ قال ما نصه وقال أهل المعانى: وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: بالختم. والطبع. والضيق. والمرض. والرين. والموت. والقساوة. والإنصراف. والحمية. والإنكار.

فقال فى الإنكار «قلوبهم منكرة وهم مستكبرون»

وقال فى الحمية «إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية»

وقال فى الإنصراف «ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهوم».

وقال فى القساوة «فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله».

وقال «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك»

وقال فى الموت «أو من كان ميتاً فأحيناه» وقال «انما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله».

وقال فى الرين «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»

وقال فى المرض «فى قلوبهم مرض»

وقال فى الضيق «ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً».

---

(٢٤) تفسير الفخر الرازى ص ٢١٣ -١٨ ط مؤسسة المطبوعات الإسلامية.

(٢٥) انظر الإنسان فى القرآن الكريم د/احمد ابراهيم مهنا ص ١٩

وقال فى الطبع «وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» وقال «بل طبع الله عليها بكفرهم» وقال فى الختم «ختم الله على قلوبهم»(٢٦)

ونجد فى تفسير قول الله سبحانه :

« وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »(٢٧)

يقول ما نصه «وفى النجوم منافع جمة. ذكر فى هذه الآية بعض منافعها. وهى التى ندب الشرع إلى معرفتها. وفى التنزيل «وحفظا من كل شيطان مارد» «وجعلناها رجوماً للشياطين»(٢٨).

ويقول فى تفسير قوله تعالى :

« لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ »(٢٩).

فيقول ما نصه بين سبحانه أنه منزه عن صفات الحدوث ومنها الإدراك بمعنى الإحاطة والتحديد كما تدرك سائر المخلوقات والرؤية ثابتة. فقال الزجاج وقال ابن عباس «لا تدركه الأبصار فى الدنيا ويراه المؤمنون فى الآخرة لإخبار الله بها فى قوله «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»(٣٠) ونلاحظ من هذه النصوص أن القرطبى فى تفسيره سار على منوال غيره من المفسرين فى استخدام المنهج الموضوعى عن معالجته لقضاياه مع الاستشهاد بآيات القرآن من سور أخرى.

---

(٢٦) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٦٢ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة

(٢٧) الأنعام ٩٧

(٢٨) نفس المصدر ص ٤٦ جـ ٨

(٢٩) الأنعام ١٠٣

(٣٠) تفسير القرطبى جـ ٨ ص ٥٤

الامام ابن تيمية والتفسير الموضوعى

عندما نرجع إلى تفسير الامام احمد بن تيمية أو ما جمع له من آراء فى تفسير كلام الله. نجد أن التفسير الموضوعى هو الغالب على اجتهاده واستنباطه ومن الطبيعى أن نجد التفسير الموضوعى هو السائد فى تفسيره؛ ذلك أنه يرتبط ارتباطا وثيقاً بمعالجة القضايا والمسائل التى يتعرض لها المفسر والإمام احمد بن تيمية تصدى كثيراً لمسائل وقضايا وعالجها بقدراته الفائقة وإدراكه الواسع ولمحاته الفريدة وسعة أفقه وقد وجدت له كتابا يسمى دقائق التفاسير هو عبارة عن جمع لآرائه واجتهاده فى التفسير قام بهذا العمل الطيب أحد الباحثين وهو الدكتور محمد السيد الجلندى وقد قرأت كثيراً فى هذا الكتاب فتبين لى أن الإمام احمد بن تيمية يعالج كثيراً من القضايا والمسائل التى تعرض لها بهذا اللون من التفسير فهو كثيراً ما يستند إلى آيات كثيرة ومن سورة أخرى حتى يصل إلى بغيته ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة لتكون شاهداً على ما أرتأيناه.

يقول تحت عنوان حقيقة القول فى عيسى. وفى تفسير قول الله سبحانه :

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ»(٣١).

يقول ما نصه «كلام حق فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشرى. على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته. فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال : «وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا»(٣٢)

(٣١) آل عمران ٥٩ ـ ٦٠

(٣٢) النساء فى الآية ١

وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى. وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح. فإن حواء خلقت من ضلع آدم. وهذا أعجب من خلق المسيح فى بطن مريم وخلق آدم أعجب من هذا وهذا. وهو أصل خلق حواء. فلهذا شبهه الله بخلق آدم. الذى هو أعجب من خلق المسيح. فإذا كان سبحانه قادراً أن يخلقه من تراب. والتراب ليس من جنس بدن الإنسان. أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة من جنس بدن الإنسان. ثم يقول بعد ذلك: إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم فأعنى بقوله عيسى أشار إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة. لأنه لم يذكر أن النسوت ههنا اسم المسيح. انما ذكر عيسى فقط. فإنه يقال عيسى هو المسيح بدليل انه قال

« مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ »(٣٣)

فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسولاً ليس هو بآله. وأنه ابن مريم. والذى هو ابن من مريم هو النسوت وقال

« إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا »(٣٤).

---

(٣٣) المائدة ٧٥

(٣٤) النساء ١٧٠ ـ ١٧٢

وقال تعالى «وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ» (٣٥)

وقال تعالى «لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ». (٣٦)

ومن هذا النص يتبين لنا أن الامام احمد بن تيمية سلك هذا اللون من التفسير عند معالجته لقضاياه ولعله كان أقرب ممن سبقه للتفسير الموضوعى.

أبو حامد الغزالى والتفسير الموضوعى

ما ذكرناه من قبل من أمثلة انما هو لبعض من صنف فى التفسير بأسلوبه التقليدى وهو تفسير القرآن آية آية ولقد أردنا من ذلك أن تكون هذه الأمثلة استدلالاً وشاهداً على ما ذهبنا إليه. وهو أن كتب التفسير قديماً وحديثاً والتى سارت على تفسير القرآن آية آية. لم تخل من التفسير الموضوعى. ونحب بعد ذلك أن نذكر هنا أمراً آخر وهو أن كتب التراث الإسلامى بوجه عام والتى عالجت القضايا الاجتماعية والاخلاقية بوجه خاص، قد اهتمت كثيراً بهذا اللون

(٣٥) التوبة ٣٠

(٣٦) المائدة ٧٢ دقائق التفاسير الجامع لتفسير الامام بن تيمية جمع وتقديم د/محمد السيد الجلندى

من التفسير الموضوعى وسنكتفى فى هذا المقام بأحد اعلام المسلمين الكبار. وهو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى.

فقد انجب القرن الخامس الهجرى هذا العالم الكبير فزخرت المكتبة الإسلامية بمصنفاته القيمة التى ترتبط بمعظم الفنون التى تمس حياة المسلم فى دنياه وآخرته. ومن مؤلفاته العظيمة ولاشك كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب من الكتب التى يحتاج إليها كل دارس وكل باحث مسلم وغير مسلم

وعندما نقرأ فى هذا الكتاب نلاحظ أن هذا المؤلف العظيم رحمه الله. سار على منهج عظيم. وهو جمع الآيات القرآنية وضم بعضها إلى بعض تحت الموضوع الذى يريد مناقشته. ثم يبدأ بعد ذلك فى التصنيف فيه والكتابة حوله فهو مثلاً يقول تحت عنوان «الباب الأول فى فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهده من النقل والعقل»
فبدأ أولاً بعنوان «فضيلة العلم» ثم قال ما نصه

شواهدها من القرآن. قوله عز وجل «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط . فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه. وثنى بالملائكة. وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً. وجلاءاً ونبلاً وقال الله تعالى. يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات. قال ابن عباس رضى الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة. ما بين الدرجين مسيرة خمسمائة عام وقال عز وجل «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»
وقال تعالى «انما يخشى الله من عباده العلماء»
وقال تعالى «قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب»
وقال تعالى ««قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به»
تنبيها على أنه اقتدر بقوة العلم وقال عز وجل «وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً».

بين أن عظم قدر الآخرة يعلم بالعلم وقال تعالى «ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم» رد حكمه فى الوقائع إلى استنباطهم وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء فى كشف حكم الله.

وقال عز وجل

« بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ »

وقال تعالى

« خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ »(٣٧).

وبعد أن ذكر هذه الآيات الكريمة فى فضل العلم ينتقل إلى ما ورد من أخبار حول هذا الموضوع. ثم بعد ذلك يدخل فى تفصيل وإيضاح لفضل العلم. بطريقته التى تميز بها وأرى أن هذه الطريقة هى الطريقة المثلى لكل باحث اسلامى. فهو كما يرى كل من قرأ فى كتابه هذا يبدأ بالآيات القرآنية أولاً. ثم يثنى بالأخبار. أى بالمأثور عن رسول الله وعن أهل السلف. ثم يدخل بعد ذلك فى معالجة الموضوع بعقليته النيرة وإدراكه الواسع.

ونذكر مثالاً آخر لهذه الطريقة الفريدة التى سار عليها الامام أبوحامد الغزالى رحمه الله إذ يذكر تحت عنوان «فضيلة الاستغفار» فيقول ما نصه قال الله عز وجل «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم».

وقال علقمة والأسود. قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنهم: فى كتاب الله عز وجل آيتان ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له. والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الآية وقوله عز وجل «ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما» وقال عز وجل «فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً» وقال تعالى «والمستغفرين بالاسحار»(٣٨).

وهكذا سار هذا العالم الجليل رحمه الله على هذه الطريقة وهى خاصية انفردا بها نكاد نقول: انها لم تعرف لأحد أتى قبله وتكاد لا تعرف لأحد أتى بعده على وجه الإطلاق. وهذا المنهج يرتبط ارتباطا وثيقاً بالتفسير الموضوعى بل هو من صميم هذا اللون من التفسير.

---

(٣٧) احياء علوم الدين جـ ١ ص ٥ ـ ٦

(٣٨) احياء علوم الدين ص ٣١٣

الوحدة الموضوعية بين الآيات والسور

الباحث فى التفسير الموضوعى يجد أن لا مناص أمامه من التطرق لموضوع يرتبط ارتباطاً وثيقاً بهذا الموضوع. بل هو جزء منه. وهو المناسبات بين الآيات والسور واعمال العقل فى أوجه الربط بين الجملة والجملة فى الآية القرآنية أو بين الآية والآية فى الآيات المتعددة. وهذا الموضوع أهتم به علماء التفسير والدراسات القرآنية. قديماً وحديثاً. وقلما نجد تفسيراً بالرأى خلا من هذا اللون. مما حدا ببعض العلماء. أن يفرد هذا المبحث بالتصنيف. وممن صنف فيه. أبوجعفر احمد بن ابراهيم ابن الزبير الأندلسى النحوى. المتوفى سنة ٨٠٧ هـ . كتب كتاباً سماه «البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن». كما ألف فيه الشيخ برهان الدين البقاعى كتابا اسمه «نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور».

كما كتب فيه الزركشى مبحثاً فى كتابه البرهان هذا وقبل أن ندخل فى عرض لأهم كتب التفسير التى اهتمت بأوجه الربط بين الآيات والسور. نحب أن ننوه إلى بعض الفوائد التى تعود من معرفة أوجه الربط بين الآيات. وأهمها. أن أوجه الربط بين الآيات سر من أسرار الله فى كتابه. بل ذهب كثير من العلماء أن أوجه الربط بين آيات القرآن الكريم بعضها ببعضه هو وصول إلى وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.

ونستطيع أن ندرك ذلك . إذا عرفنا أن القرآن الكريم أنزل مفرقاً منجماً على رسول الله فى مدة تزيد عن عشرين عاماً. ونزل على حسب الوقائع والدواعى المتجددة أثبت الله سبحانه وتعالى فى كتابه إذ قال جل شأنه «وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا»(٣٩)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل عليه شئ من القرآن دعا بعض من يكتب عنده فيقول «ضعوا هذه الآيات فى موضع كذا وكذا من السورة. وهو بشر لا يعلم ما سيأتى به

(٣٩) الاسراء ١٠٦

المستقبل إلا بعلم الله ثم مضى العمر الطويل. وإذا القرآن كله يكمل ويتم وينتظم ويتآخى. ولا يؤخذ عليه شئ من الخلل أو التفاوت. حتى إنك مهما أنعمت النظر وبحثت لا تستطيع أن تجد فرقا بين السور التى نزلت جملة والسور التى نزلت منجمه. من حيث إحكام الربط فى كل منهما. فسورة البقرة مثلاً وقد نزلت بضعا وثمانين نجماً. فى تسع سنين لا تجد فرقاً بينها وبين سورة الأنعام التى نزلت دفعة واحدة ـ كما يقول الجمهور ـ من حيث نظام المبنى. ودقة المعنى. وتمام الوحدة الفنية وإذا قرأت سورة الضحى، وسورة «إقرأ» وسورة الماعون. لا تشعر بفارق بينهما وبين كثير من السور القصار مثلها. من حيث الإحكام والوحدة. والإنسجام كذلك. على حين أن تلك السور الثلاث نزلت كل واحدة منها مفرقة على نجمين(٤٠).

هذا الترابط والإنسجام والوحدة الموضوعية بين الجملة والجملة. فى الآية القرآنية. أو بين الآية والآية فى الآيات المتعددة أو بين الآيات والآيات فى السورة أو بين السورة والسورة التى تليها. كل يدل ولاشك. على انه كلام علام الغيوب وهو من صنع الله الذى أتقن كل شئ وصدق الله العظيم إذ يقول

« كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ »(٤١).

هذا ونحب أن نشير هنا إلى أن أوجه الربط بين الآيات القرآنية أو بين السورة والسورة. ليس أمراً توقيفياً. فلم يرو شئ عن رسول الله ولا عن أصحابه بشأنه فيما نعلم ولكنه يعتمد على اعمال العقل والبحث الدقيق. والنظرة الفاحصة. كما انه يعتمد على التذوق لاعجاز القرآن الكريم وأسراره البلاغية. وممن برع فى هذا اللون من التفسير. العالم الكبير الفخر الرازى فى تفسيره القيم. فهو يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض. بل بين السورة والسورة. وهو لبراعته الفائقة وعقله الواسع ولمحاته الفريدة نجده فى بعض الأحيان. لا يكتفى بوجه واحد من الربط. بل كثيراً ما يذكر أكثر من وجه. ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة لتكون شاهدا على ما قلناه.

---

(٤٠) انظر مناهل العرفان لفضيلة الشيخ عبدالعظيم الزرقانى جـ ٢ ص ٢٣٧

(٤١) سورة هود ١

فمثلاً يقول فى تفسير قوله سبحانه وتعالى

« مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ »(٤٢)

نجده يحاول بادراكه الواسع وسعة أفقه. أن يربط بين هذه الآية الكريمة وبين ماقبلها فيقول ما نصه «أنه تعالى لما بين حقيقة صفات المنافقين عقبها بضرب مثلين زيادة فى الكشف والبيان. ويقول فى تفسير قوله سبحانه

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ »(٤٣)

نجده هنا يحاول أيضا أن يربطها بما قبلها فيقول «إن الله تعالى لما قدم أحكام الفرق الثلاثة. أعنى المؤمنين والكفار والمنافقين . أقبل عليهم بالخطاب»(٤٤).

ثم يقول بعد ذلك فى تفسير قوله سبحانه

« إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا »(٤٥).

يقول عقبها اعلم أنه تعالى. لما بين بالدليل. كون القرآن معجزاً أورد هنا شبهة أوردها الكفار. وأجاب عنها(٤٦). ويتتابع بعد ذلك المفسرون بعد الفخر الرازى. وكما قلت. قلما نجد مفسراً خلا تفسيره من محاولة الربط بين الآية والآية. والسورة والسورة والجملة والجملة فى

---

(٤٢) البقرة الآية ١٧

(٤٣) البقرة ٢١

(٤٤) المرجع نفسه جـ ١ ـ ٢ ص ٨٢

(٤٥) البقرة فى الآية ٢٦

(٤٦) نفس المرجع جـ ١ ـ ٢ ص ١٣١

الآية. حتى جاء فارس هذه الحلبة دون منازع. وهو المفسر العظيم العلامة أبى السعود فى تفسيره الذى سماه (ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم».

لقد قام العالم الجليل رحمه الله بعمل عظيم فى ابراز واظهار الأسرار البلاغية بين الآية والآية والجملة والجملة. فى الآية بأسلوب فاق أقرانه دون منازع. ونستطيع أن نقول إن معالجة أبى السعود لهذه الناحية من التفسير بالرأى تعد من مزاياه التى انفرد بها. ومن هنا لا غرابة أن نجد كثيراً من المفسرين ممن أتوا بعده قد تأثروا به وحاكوه وساروا على منواله ولنرجع إلى تفسيره العظيم فنجده يقول فى قوله سبحانه

«وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ»(٤٧).

يقول فى وجه الربط بين هذه الآية وما قبلها مباشرة «وقفينا على آثارهم» شروع فى بيان أحكام الانجيل إثر بيان أحكام التوراة. ويقول بعد ذلك فى وجه الربط بين جملة وجملة فى آية واحدة. وهى قوله سبحانه

«فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ»(٤٨).

يقول والفاء فى قوله تعالى «فاحكم بينهم» لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن كون القرآن العظيم حقا مصدقا لما قبله من الكتب المنزلة على الأمم. مهيمناً عليه من موجبات الحكم

---

(٤٧) المائدة ٤٦

(٤٨) المائدة فى الآية ٤٨

المأمور به. اى إذا كان شأن القرآن كما ذكر فاحكم بين أهل الكتابين عند تحاكمهم إليك «بما أنزل إليك» أى بما أنزله إليك»[٤٩].

معالم التفسير الموضوعى فى العصر الحديث

وننتقل الآن إلى معالم التفسير الموضوعى فى العصر الحديث وهنا نلاحظ أن التفسير الموضوعى بدت معالمه واتضحت فى هذا العصر أكثر من غيره ولعل ذلك يعود إلى أن هذا اللون من التفسير صارت الحاجة إليه ماسة وملحة ومهمة. وخاصة فى نشر الدعوة الإسلامية بين قوم ليس لهم دراية بالثقافة الإسلامية ويحتاجون الى من يشجعهم ويجذبهم إلى فهم الإسلام وكما هو معروف لدى الدارسين الباحثين فى القرآن وعلومه. فإن التفسير الموضوعى قد غلب فى بعض الأحيان على التفسير التقليدى فى بعض المصنفات. وظهرت مؤلفات تحت موضوعات تتعلق بالقرآن الكريم.

وقبل ظهور الشيخ محمد عبده رحمه الله. برز فى عالم التفسير، هذا العالم الفقيه المفسر محمد بن على بن محمد الشوكانى كتب كتاباً فى التفسير. يعد بحق من أهم ما كتب فى التفسير فى العصور المتأخرة على وجه الاطلاق وانفرد بخاصية. تكاد لا تعرف لغيره من المفسرين ألا وهو سيره فى كتابه هذا كله. على الجمع بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية. ومن هنا سماه «فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير» نقول: إن هذا التفسير مع انه سار بالأسلوب التقليدى. أى تفسير القرآن آية آية. إلا أنه بجانب هذا. لم يغفل التفسير الموضوعى فتحدث عن أوجه الربط بين الجملة والجملة فى الآية. كما تحدث عن الربط بين الآية والآية أو الآية والآيات. ولم يكتف بهذا بل حاول الربط بين السورة وما قبلها. ويلاحظ عليه انه تأثر كثيراً فى هذا الصدد بتفسير أبى السعود وتفسير القرطبى. وقد قرأت فى كتابه كثيراً. فوجدت انه يعنى بهذه الناحية ويعطيها أهمية كبيرة عند تفسيره بالدراية. فمثلاً يقول فى قوله سبحانه

«ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ»[٥٠].

---

(٤٩) تفسير أبى السعود جـ ٢ ص ٥٠

(٥٠) النور فى الآية ٢

نجده يحاول الربط بين هذه الآية وما قبلها وخاصة قوله سبحانه

«**آيات بينات**» فيقول ما نصه «**الزانية والزانى**» هذا شروع فى تفصيل ما اجمل من الآيات البينات»(٥١).

وفى موضع آخر نجد الشوكانى رحمه الله يحاول الربط بين آيات تتعلق بموضوع خاص، وهو الزجر عن الزنى والقذف. وبين آيات أخرى تتعلق بموضوع آخر وهو الزجر عن دخول البيوت بغير استئذان فيقول فى قوله سبحانه

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ »(٥٢)

فيقول فى وجه الربط ما نصه لما فرغ سبحانه من ذكر الزجر عن الزنى والقذف شرع فى ذكر الزجر عن دخول البيوت من غير استئذان. لما فى ذلك من مخالطة الرجال بالنساء.

ويقول فى قوله سبحانه وتعالى

---

(٥١) فتح القدير جـ ٤ ص ٤

(٥٢) النور الآيات ٢٧ ـ ٢٩

«وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ

كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً»(٥٣).

فنحاول أن يربط بين هذه الآية وما قبلها فيقول لما ذكر سبحانه حال المؤمنين وما يؤول إليه أمرهم ذكر مثلاً للكافرين فقال «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة»(٥٤).

وفى تفسيره لسورة النمل نجده يحاول أن يربط بين ما جاء فيها من قصص وبين قوله سبحانه وتعالى فى أولها «وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم»

يقول عند قوله تعالى

«وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا»(٥٥).

لما فرغ سبحانه من قصة موسى شرع فى قصة داود وابنه سليمان. وهذه القصص وما قبلها وما بعدها. هى كالبيان والتقرير لقوله تعالى :

«وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ»(٥٦).

وهكذا يسير الشوكانى على هذا المنوال فى تفسيره بالدراية . مرة بالربط بين الجملة والجملة فى الآية . ومرة بالربط بين الآية والآية فى السورة ومرة بالربط بين الآيات والآيات التى يمكن أن تكون تحت موضوع معين.

ويتتابع المفسرون بعد ذلك وفى كل عصر ومصر تزخر المكتبة الإسلامية بمؤلفات قيمة تخدم كتاب الله. حتى جاء هذا العالم العظيم وهو الشيخ محمد عبده الذى يعد صاحب مدرسة فى التفسير تتلمذ عليها كثير من أهل العلم فى عصرنا الحاضر. ومن المعلوم لدى الباحثين فى الدراسات القرآنية أن الشيخ محمد عبده بر زكمفسر عظيم برغم ما يؤخذ عليه من شطحات أو أخطاء.

وإذا نظرنا إلى ما يتعلق بموضوع بحثنا. وهو التفسير الموضوعى فى تفسير الشيخ محمد

---

(٥٣) النور فى الآية ٣٩

(٥٤) فتح القدير جـ ٤ ص ٣٨

(٥٥) النمل ١٥

(٥٦) فتح القدير جـ ٤ ص ١٢٩

عبده فإننا نجد أن التفسير الموضوعى صار بارزاً فى تفسيره خاصة إذا قورن بالتفاسير الأخرى التى سبقته ولنرجع إلى تفسير المنار الذى جمع فكر الأستاذ الشيخ محمد عبده لنجد أن طابع التفسير الموضوعى قد غلب فى بعض الأحيان على التفسير التحليلى فمثلاً يقول فى قوله سبحانه :

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ »(٥٧)

يتحدث هنا فى تفسير هذه الآية ويقف عند قوله سبحانه وتعالى «مباركاً وهدى للعالمين» ويأتى بآيات هى كالتفصيل لما اجمل ثم يقول بعد كلام لا حاجة لنا به فى موضوعنا. أما قوله تعالى فى البيت «مباركا وهدى للعاملين» فهو بيان لحاله الحسنة. الحسية. وحاله الشريفة المعنوية. أما الأولى: فهى ما أفيض عليه من بركات الأرض. وثمرات كل شئ على كونه بواد غير ذى زرع. فترى الأقوات والثمار فى مكة أكثر وأجود وأقل ثمنا منها فى مثل مصر وكثير من بلاد الشام. وأما الثانية فهى هوى افئدة الناس إليه وإتيانه للحج والعمرة مشاة وركباناً من كل فج وتولية وجوههم شطره فى الصلاة ولعله لا تمر ساعة ولا دقيقة من ليل أو نهار، وليس فيها أناس متوجهون إلى ذلك البيت الحرام يصلون فأى هداية للعالمين أظهر من هذه الهداية؟ تلك دعوة ابراهيم

« رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »(٥٨).

وقد أشير إلى الوصفين فى قوله تعالى

« وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ

(٥٧) آل عمران ٩٦ (٥٨) ابراهيم ١٧

حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ »(٥٩).

وتحت تفسير قوله سبحانه

« فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ »(٦٠).

يستفيض فى حديثه عن معنى التوكل ويقول «قد علم مما تقدم أن التوكل انما يكون مع الأخذ بالأسباب وان ترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع. أو فساد فى العقل. فالتوكل محله القلب. والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجروح. والإنسان مسوق إليه بمقتضى فطرة الله التى فطر الناس عليها «لا تبديل لخلق الله» ومأمور به فى الشرع قال تعالى :

« فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ »(٦١)

وقال :

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ »(٦٢).

وقال :

« وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ »(٦٣).

وقال :

« وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ »(٦٤).

وقال لنبيه لوط عليه السلام :

« فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ »(٦٥)

(٥٩) القصص ٥٧
(٦٠) آل عمران ١٥٩
(٦١) الملك ١٥
(٦٢) النساء ٧١
(٦٣) الأنفال ٦٠
(٦٤) البقرة ١٩٧
(٦٥) هود ٨١

ثم يقول «ذلك بأن الإنسان إذا توكل ولم يستعد للأمر ويأخذ له أهبته بحسب سنة الله فى الأسباب والمسببات. يقع فى الحسرة والندم. عندما يخيب ويفوته غرضه. فيكون ملوماً شرعاً وعقلاً. كما قال تعالى فى مسألة الاسراف فى المال:

« وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا »(٦٦).

وإذا هو استعد وأخذ بالأسباب واعتمد عليها. غافل قلبه عن الله تعالى. فإنه يكون عرضة للجزع والهلع. إذا خاب سعيه ولم ينل مراده. فيفوته الصبر والثبات. اللذان يهونان عليه الأمر. ولذلك قرن الله الصبر بالتوكل. فى عدة آيات من كتابه قال تعالى حكاية عن الرسل عليهم السلام فى محاجة أقوامهم: « وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ »(٦٧).

ويقول صاحب تفسير المنار وجاء ذكر التوكل فى مقام ذكر الحرمان من الرزق أو سعته كما جاء فى مقام الصبر على إيذاء المعتدين كقوله تعالى: « وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ۚ »(٦٨) (٦٩).

ولعلك تدرك معى أن التفسير الموضوعى بدأ يبرز فى هذا التفسير أكثر من التفاسير التى سبقته. وأصبح التفسير الموضوعى من عهد الشيخ محمد عبده وما بعده. له طابع خاص ولقد

---

(٦٦) الاسراء ٢٩

(٦٧) ابراهيم ١٢

(٦٨) الطلاق ٢ ـ ٣

(٦٩) تفسير المنار جـ ٢٣ ص ١٧٠ ـ ١٧١

سار على منوال الشيخ محمد عبده الكثير من علماء الدراسات القرآنية واتجه العلماء كل أدلى بدلوه فى هذا المضمار.

ومن أهمهم فضيلة الشيخ احمد مصطفى المراغى رحمه الله وقد كتب كتابه فى التفسير شمل القرآن كله سار فيه مع القرآن آية آية ومع ذلك يعتبر تفسير المراغى من التفاسير المعاصرة التى انتهجت نهجاً يتفق مع حاجة العصر والدعوة والدعاة إذ نجد هذا التفسير. يركز على الالمام بالوحدة الموضوعية فى السورة القرآنية كما اهتم بربط السورة بما قبلها. وبحمد الله قد قرأنا فى هذا التفسير كثيراً ونستطيع أن نقول بعد ذلك إن هذا التفسير العظيم اهتم بالتفسير الموضوعى. اهتماماً جعله بارزاً واضحاً لكل من أمعن النظر فيه. والآن نود التركيز على ما يتعلق بموضوعنا ويمكن أن نجمل هذه الأمور فيما يلى:

١ ـ يلاحظ على هذا التفسير انه قبل أن يبدأ فى التفسير التحليلى فى السورة يحاول المؤلف رحمه الله أن يضع آيات فى السورة تحت موضوعات محددة وكل موضوع يضع له عنواناً. وبالتالى. ينتهى الأمر إلى وضع تنسيق متكامل مترابط بين الآيات والآيات فى السورة الواحدة وهو أسلوب برز فى عصرنا الحاضر كمحاولة للتوفيق بين التفسير التقليدى للقرآن آية آية والتفسير الموضوعى.

وقد سار على هذا المنوال كثير من علماء التفسير وخاصة فى العصور المتأخرة ومن هؤلاء العلماء البارزين فى هذا المنهاج فضيلة الأستاذ الشيخ سيد قطب رحمه الله فى تفسيره العظيم فى ظلال القرآن».
إلا أن هذا المسلك يتضح أكثر وأكثر فى هذا التفسير. والآن نذكر شاهداً على ما قلناه.

فمثلاً يقول فى أول سورة الحج «وهى بحسب موضوعاتها أقسام ثلاثة»

١ ـ البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك .
٢ ـ الحج والمسجد الحرام .
٣ ـ أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب[٧٠].

(٧٠) تفسير المراغى جـ ١٦ ـ ١٧ ص ٨٣

٢ ـ يعنى المؤلف رحمه الله بالربط بين السورة والسورة . وفى معظم الأحيان لا يقتصر على ذكر وجه واحد للربط . ولكنه يذكر أكثر من وجه للربط بين السورة والسورة ونستطيع أن نقول: إنه لم يترك سورة من القرآن الكريم إلا ذكر وجهاً أو وجوهاً للربط بينها وبين سابقها.

فمثلاً يقول فى أول سورة الأنبياء «ومناسبتها لما قبلها أن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التى جعلها الله لهم فتنة وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها وأمره بالصلاة والصبر عليها. وأن العاقبة للمتقين. وبدأت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون وقلوبهم لاهية عنه[٧١].

وفى أول سورة الحج لم يكتف بذكر وجه واحد للربط بين السورة وسابقها بل ذكر أكثر من وجه إذ يقول «ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه.

(١) إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله: يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب. وقوله: واقترب الوعد الحق. وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية.
(٢) انه قد اقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية. وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث.
(٣) فى السورة السالفة وما قبلها. قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم وفى هذه السورة. خطاب من الله للأمم الحاضرة. وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالاً أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه وتدبيره من خلق الأجنة والنبات والحيوان[٧٢].
(٤) برزت عناية المؤلف رحمه الله لهذا اللون من التفسير الموضوعى. وذلك بالربط بين الآيات والآيات المتتابعة تحت موضوع واحد حتى انه عنون لهذا اللون من التفسير عنواناً سماه «المعنى الجملى» حاول فيه أن يربط بين الآيات والآيات فعل ذلك فى تفسيره كله تقريباً ونضرب لذلك بعض الأمثلة كتأكيد لما ارتأيناه فمثلاً يقول فى تفسير قوله سبحانه:

«أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ»[٧٣].

---

(٧١) نفس المرجع ص ٤ (٧٢) نفس المصدر ص ٨٣ (٧٣) الأنبياء ٢١

يقول تحت عنوان المعنى الجملى «بعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيراً من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت وأنشأ بعدها أقواماً آخرين وانهم حين احسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لا ينفع الندم. ثم أردف ذلك أن من فى السموات والأرض عبيده. وأن الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يكلون ولا يملون منها. ذكر هنا انه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد. لكنهم لم يفعلوا ذلك بل فعلوا ضده فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف. ثم أقام البرهان على وحدانيته. وأنه لو كان فى السموات والأرض إلهان) لهلك من فيهما تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون[٧٤].

ونلاحظ من هذا المثال أن المؤلف رحمه الله، يركز فى معالجته لموضوع الربط بين الآيات فيعنى بالربط بين الآيات والآيات لا الآية ولا الآية.

التفسير الموضوعى فى أبحاث مستقلة

على الرغم من عناية العلماء بهذا اللون من التفسير فى عصرنا الحاضر إلا أننا نلاحظ أيضا أن الكتابة فى التفسير الموضوعى كأبحاث مستقلة منفصلة عن التفسير التحليلى ظهر فى القديم والحديث على حد سواء فمثلاً. ألف ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ فى مشكل القرآن وابن القيم افرد كتابا من مؤلفاته القيمة عن أقسام القرآن سماه «التبيان فى أقسام القرآن» وأبو عبيدة أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن. والراغب الأصفهانى أفرد كتابا فى مفردات القرآن. وأبو جعفر النحاس أفرد كتاباً فى الناسخ والمنسوخ من القرآن. وأبوالحسن الواحدى أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن والجصاص أفرد كتابا فى أحكام القرآن. وهكذا فى كل عصر. نجد كثيراً من الكتب التى تناولت هذا الموضوع. فتكلمت عن ناحية واحدة من نواحيه المتشعبة المتعددة. وفى عصرنا الحاضر جاء فارس هذه الحلبة فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر رحمه الله.

وقد بدأ باصدار رسالتين بعنوان «القرآن والمرأة» «والقرآن والقتال» وكان ذلك نواة لأبحاث مستقلة ألفها فيا بعد وسار على منواله كثير من علماء الدراسات القرآنية. وكتبت رسائل عدة

(٧٤) نفس المصدر ص ١٨

تقدم بها أصحابها لنيل رسالة الماجستير والدكتوراه ونعود إلى فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت رحمه الله لنجد له كتاباً حافلاً يعتبر علامة بارزة فى هذا اللون من التفسير ويعد بحق أكثر الكتب استخداماً للتفسير الموضوعى وعلى نطاق أوسع مما كان وهذا الكتاب هو «تفسير القرآن الكريم الأجزاء العشرة الأولى».

وفى هذا الكتاب يجد القارئ الكريم التوسع فى التفسير الموضوعى. بل إن التفسير الموضوعى فى هذا الكتاب. هو السائد والغالب على هذا التفسير لقد تعرض المؤلف رحمه الله إلى موضوعات كثيرة. فى ضوء الآيات التى تحدث عنها بقطع النظر عن التباعد بينها وترتيب القرآن الكريم ونستطيع أن نجمل طريقته في هذا التفسير فيما يلى:

(١) يبدأ المؤلف رحمه الله . بعرض تفسير اجمالى للسورة . مع التركيز على الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية. ويعنون لذلك بعنوان هو «مقاصد السورة» فمثلاً: عند تفسيره لسورة آل عمران يقول فى المقدمة وتحت عنوان «مقاصد السورة» (نسير بعد هذا مع السورة لنتعرف مقاصدها وما بنيت عليه. هذه السورة مدنية وليست من أوائل ما نزل بالمدينة. ولكنها نزلت بعد فترة طويلة من حياة المسلمين. تقلبت فيها عليهم أحوال من النصر والهزيمة. فى غزوات متعددة واختلطوا على صورة واضحة بأهل الكتاب من يهود ونصارى. وجرى بينهم كثير من الحجاج والنقاش فيما يتصل بالدعوة المحمدية وفروعها. وقد ذكر منها غزوة «بدر وأحد». ثم يقول ونحن إذ نقرأ السورة نجدها قد برزت فيها العناية بأمرين عظيمين لهما خطرهما فى سعادة الأمم وشقائها أحدهما. تقرير الحق فى قضية العالم الكبرى. وهى مسألة الألوهية وانزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الدين والوحى والرسالة.

والثانى ـ تقرير العلة التى من أجلها ينصرف الناس فى كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على ادراكه والتمسك به[٧٥]. ثم بعد ذلك يبدأ فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت فى تفصيل ما اجمل ويتفرع حديثه إلى معالجة قضايا ترتبط بالسورة الكريمة، ويستشهد مع ذلك بآيات من سورة أخرى وبهذه الطريقة يعالج المؤلف رحمه الله قضايا مع التركيز على الوحدة الموضوعية للسورة.

(٢) تعرض المؤلف رحمه الله إلى موضوعات كثيرة عالجها القرآن. ناقشها هو بأسلوب

(٧٥) تفسير القرآن الكريم ص ٩١ ـ ٩٢

عصرى. مع ربط الآيات القرآنية بالموضوع بقطع النظر عن التباعد بينها فى ترتيب الكتاب الكريم. وسنضع امام القارئ مثالاً أو أكثر فى هذا الصدد.

يقول تحت عنوان «سور الحمد فى القرآن الكريم» وبصدد الحديث عن سورة الفاتحة. وفى القرآن غير الفاتحة سور أربع. بدأت بالحمد لله هى سورة الأنعام. وسورة الكهف وسورة سبأ وسورة فاطر. وبذلك تكون سور الحمد خمسة . ومما تجدر ملاحظته أن هذه السور الخمس. قد دارت حول بيان ربوبيته الله للعالم من ناحيتها. الخلقية والتشريعية. وأن سورة الفاتحة. تختص من بينها بأنها أجملت ذكرى هذه الربوبية من الجانبين. وأن السور الأخرى جاءت كتفصيل لهذا الإجمال. وافتتحت كل سورة منها بعد الحمد لله بما يشعر بنوع التربية التى فصلتها. فبينما تبدأ الفاتحة بالحمد لله رب العالمين فتعم تربية الخلق والتشريع وتتبعه بما يؤكد هذا المعنى فى الجانبين. نرى أن سورة الأنعام. تبدأ بقوله تعالى «والحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور».

فتذكر شأن الخلق والايجاد. وتذكر اعراض الكائنات من الظلمات والنور. وخلق الإنسان من طين. والقرون الذين مكنهم الله فى الأرض والسماء والأنهار. وما سكن فى الليل والنهار. ومفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا هو. واستدلال ابراهيم على الله بظواهر الشمس والقمر والنجوم. إلى غير ذلك مما تغلب عليه ناحية الخلق والتدبير. ونرى سورة الكهف تبدأ بقوله تعالى «الحمد لله أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لأبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذباً، ونرى سورة سبأ تبدأ بقوله تعالى «الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور».

فتذكر جانب التربية الخلقية. كما ذكرته سورة الأنعام. ولكن على نحو آخر فتذكر أن جميع ما فى السموات والأرض لله علما وتصريفاً. وتعرض للساعة وعلم الغيب على صور شتى. ثم تعرض لقصص بعض الأنبياء من جهة ما مكن الله لهم فى الأرض من تسخير بعض الكائنات لداود وسليمان. وتذكر سبأ ومساكنهم وما كان لهم من متاع. وما أصابهم حين أعرضوا

عن دعوة الحق. وتعرض للرزق فى مواضع متعددة. ثم تختم ببيان من ضلوا عن الصراط المستقيم ولم يعملوا عقولهم فى تلك الآيات الكونية (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب».

وترى سورة فاطر تبدأ بقوله تعالى «الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شئ قدير. ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها. وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم» فتجمع كما جمعت سورة الفاتحة نوعى التربية ولكن على تفصيل. فتذكر خلق السموات والأرض. وتذكر رسل الوحى من الملائكة. وأن الله مصدر الرحمة بيده امساكها وارسالها. رحمة بالخلق ورحمة بالتشريع. ثم تسير فى ذكر بعض ظواهر الكائنات من ارسال الريح والسحاب وخلق الإنسان من تراب. وتصريف الله لليل والنهار. والشمس والقمر واختلاف الناس والدواب فى الألوان» ثم يقول «هذه سور الحمد فى القرآن وهذا هو اسلوبها. وهى كلها مكية نزلت فى وقت تأسيس الدعوة الى التوحيد واعتقاد أن الله هو مصدر كل خير يصيب الإنسان من جهة حياته المادية وحياته الروحية.»(٧٦).

وفى تفسيره لسورة آل عمران أن يقول تحت عنوان «خمسة نداءات الهية لجماعة المؤمنين» هذه النداءات الآلهية الخمسة هى قوله تعالى

(١) يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وانتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم.

(٢) يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا» إلى قوله سبحانه «واولئك لهم عذاب عظيم» .

(٣) (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عانتم، إلى قوله سبحانه إن الله بما يعملون محيط).

---

(٧٦) انظر تفسير القرآن الكريم ص ٢١ ـ ٢٥ مع بعض التصرف والاختصار لبعض الفقرات

(يا أيها الذين لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة) إلى قوله سبحانه «هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين».

(٥) (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) هذه النداءات الخمسة التى ذكرنا انها ترمى إلى هدف واحد. فى تركيز الأمة الإسلامية وصيانتها من عوامل الضعف الداخلية والخارجية[٧٧] ثم يستفيض المؤلف رحمه الله بعد ذلك فى حديث مسهب لمعالجة قضايا كثيرة. أشارت إليها هذه الآيات الكريمة وبأسلوب موضوعى فريد، وهكذا يسير على هذا المنوال فى هذا الكتاب القيم، وهو فيما نرى كتاب انفرد بخصائص فى هذا اللون من التفسير جعله مصدرا ومرجعاً. ومنهاجاً لكثير من الباحثين فى الدراسات القرآنية فتأثر به كما قلت كثير من الباحثين الذين أتوا بعده ونسجوا على منواله واقتفوا أثره مما يجعلنا نقول بحق إن إسلوبه فى التفسير هو نسيج وحده ونحن بحاجة ماسة إلى مثل هذه الجهود الطيبة المباركة نحو كتاب الله فكتاب الله كان ومازال حتى يرث الله الأرض ومن عليها غضاً طرياً لا يخلق عن كثرة الرد كما أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جاء بعده علماء كتبوا أبحاثا مستقلة ركزوا فيها أيضا على التفسير الموضوعى ومن العلماء البارزين فى هذا المضمار احمد ابراهيم مهنا فقد كتب كتاباً قيما صدر عن مجمع البحوث الإسلامية وهو بعنوان «من التفسير الموضوعى الإنسان فى القرآن الكريم» وقد تفرع هذا الكتاب إلى خلق الإنسان وطبيعته، ووضعه بين المخلوقات. والغاية من خلقة ونهايته. كما تحدث عن أنواع الإنسان بالنسبة للعقيدة. فتناول موضوع الإيمان والمؤمنون فى القرآن الكريم ومنهاج الله فى العلاقات الإنسانية. كما تحدث عن أنبياء الله ورسله وخاصة الرسول صلى الله عليه وسلم بمبحث خاص. هذا وقد برع المؤلف فى هذا الكتاب بصورة جعلته فى مصاف كتب التفسير الموضوعى. ومن أبرزها على وجه الإطلاق. وخاصة أنه أورد الآيات القرآنية المرتبطة بكل موضوع على حدة ونظمها تنظيماً موضوعياً. بحيث يجد الدارس أن كل موضوع قد استوفى حقه من التنظيم والتنسيق. ولقد تحدث فى بداية الكتاب عن رغبته الملحة فى عمل هذا البحث منذ أن كان طالبا بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر إلى أن فتح الله عليه.. وقام بتأليف هذا الكتاب وهو فيما أرى. أن المكتبة الإسلامية فى حاجة إليه وإلى كثير من هذه الأعمال القيمة وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار نشر الدعوة الإسلامية فى أنحاء المعمورة.

---

(٧٧) تفسير القرآن الكريم نفس المصدر ص ١١١ ـ ١١٢

يقول الدكتور أحمد ابراهيم مهنا . ولقد شغلت بالتفكير فى هذا النوع من التفسير منذ أن كنت طالبا بكلية اصول الدين وكان ايمانى بشدة الحاجة إليه يزداد كلما اتصلت بالشباب الذى لم يكن له حظ من ثقافتنا الأصيلة. ثم سافرت إلى انجلترا للدراسة. ثم إلى الولايات المتحدة الأمريكية مبعوثاً للأزهر لنشر الثقافة الإسلامية. وفى كلا البلدين كانت التجارب العملية التى دفعتنى إلى البدء فى هذا النوع من التفسير. فلقد لقيت كثيراً من النـاس يتكلمون باسم العلم والبحث الحر. ويهاجمون الإسلام بأسلوب يبدو لمن لا دراية له بتراثنا ولا معرفة له بأسلوب كتابنا المقدس. انه علمى محايد. فكانت آيات القرآن تتلى. ويستدل بها على مغالطات فاضحة. بعد أن تنزع من سياقها تارة أو دون أن تشفع بما يتمم معناها. من آيات القرآن الكريم تارة أخرى وقد استغل هؤلاء جهل الجماهير بهذا التراث اسوأ استغلال وابشعه ثم تكلم بعد ذلك عن المنهج الذى سار عليه فى معالجة الموضوعات[٧٨] التى تطرق إليها وهى كثيرة فقال «والمنهج الذى سرت عليه فى هذا العمل يبدأ بجمع الآيات القرآنية التى تتعلق بموضوع معين ووضعها فى نطاق واحد. ثم النظر إليها ودراستها على أنها وحدة متكاملة. وقد وفق المؤلف فى منهجه هذا إلى حد بعيد. مما جعل عمله بحق من أوفى ما كتب فى التفسير الموضوعى كما قلت من قبل إلا اننا نرى أن هذه الموضوعات التى تطرق إليها. كانت فى حاجة إلى استفاضة أكثر وربط موضوعى أكثر مما فعل. ولو أنه ادخل على هذه الآيات. ما ورد من تفسير بالمأثور. لكان العمل فيما أرى عملاً متكاملاً إلا أنه اكتفى فى كثير من الأحيان بجمع الآيات الكريمة. أما التفسير والتأويل لهذه الآيات. فقد كان فعلاً إلى حد كبير، ومع كل هذا. فإن هذه الملاحظة لا تقل من قيمة هذا العمل العظيم الذى بذل فيه المؤلف جهداً يذكر فيشكر عليه وقد نوه فى بداية كتابه إلى أنه قد قام بتبويب آيات القرآن الكريم إلى موضوعات رأى أنها وحدات متكاملة وقد جمعها فى كتاب بعنـوان «تبـويب أى القـرآن من النـاحية الموضوعية».

إلا أنه لم يقع تحت أيدينا ولعل القارئ يريد أن نذكر له مثالاً من هذا الكتاب حتى يضع يديه على مسلك المؤلف ومنهجه. يقول المؤلف تحت عنوان الطريق العادى لخلق الإنسان وأطوار خلقه فى رحم أمه.

---

(٧٨) الانسان فى القرآن الكريم د/ احمد ابراهيم مهنا ص ٢٣

ولقد تحدث القرآن عن الطريق العادى لوجود الإنسان وبين انه نتاج لقاء بين الذكر والأنثى وذلك فى قوله تعالى

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ »(٧٩)

وعنى بتفصيل الأطوار التى تمر بها النطفة فى رحم الأم الذى سماه القرآن «القرار المكين» حتى يحين وقت خروجها إلى هذا العالم طفلاً. كما عنى بتفصيل الأطوار التى يمر بها الطفل منذ ولادته حتى يبلغ أجله الذى قدره الله له أما الأطوار التى تمر بها النطفة فى رحم الأم فنجدها أكثر تفصيلاً فى موضوعين من القرآن الكريم.

(١) « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا » (٨٠).

(٢) « ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ »(٨١).

---

(٧٩) الحجرات ١٣

(٨٠) الحج ٥

(٨١) المؤمنون ١٣ ـ ١٤

ومن الواضح أن ما جاء في سورة المؤمنون فيه تفصيل لهذه الأطوار أكثر مما جاء في سورة الحج. فقد اشتملت آيات السورة الأولى على الأطوار التي جاءت في السورة الثانية. وهي العلقة والمضغة. ثم زادت على ذلك تحويل المضغة إلى عظام. وتغليف العظام باللحم وهو ما يحدث والله اعلم في الفترة التي جاءت في آية الحج في قوله تعالى «ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى».

وآخر طور ذكر في آية المؤمنون هو قوله تعالى «ثم أنشأناه خلقاً آخر» ولعله يمكن تفسير هذا القول بتحويل كتلة العظم المغلفة باللحم إلى طفل سوى أخذا مما جاء في آية الحج «ثم نخرجكم طفلاً» وهذا الطفل قد يكون ذكراً وقد يكون أنثى تبعا لمشيئة الله الخالق أخذاً من قوله تعالى

«وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا» (٨٢)

وقوله جل شأنه في الحديث عن الإنسان

«ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ» (٨٣).

ولعلك تدرك معي أيها القارئ الكريم أن هذا الأسلوب الفريد في تفسير آيات الله. اسلوب يتسم بالموضوعية. ونحن في حاجة ماسة إلى مثل هذه الجهود ونأمل أن يهتم قادة الفكر الإسلامي بهذه الدراسة المنهجية الموضوعية حتى تقف في مواجهة الاستشراق. وإزهاق الأباطيل والأكاذيب التي ترمي القرآن بما هو منه براء.

هذا وقد اهتم كثير من الباحثين بالدراسات القرآنية لهذا اللون من التفسير أيضا وممن عني بهذا التفسير الموضوعي الأستاذ الدكتور محمد البهي رحمه الله فقد اصدر سلسلة من أبحاثه حول تفسير بعض السور القرآنية سلك في منهجه الأسلوب الموضوعي فأدلى بدلوه في

(٨٢) فاطر ١١

(٨٣) القيامة ٣٨ ـ ٣٩

هذا المجال. ومن مؤلفاته فى هذا الصدد كتاب بعنوان «نحو القرآن» تناول فيه بعض الموضوعات فى ضوء القرآن الكريم وقد تحدث فى هذا الكتاب عن القرآن والتفسير الموضوعى نذكر الآن ما قاله بهذا الصدد لنتعرف على رأيه إذ يقول «إذا كان المتقدمون من علماء المسلمين. خدموا القرآن الكريم فى تجلية معانى كلماته وآياته. وبيان موقعها فى فصاحة العرب. فى الأسلوب والتراكيب والإعجاز واستخلاص الأحكام الفقهية منها. والاستدلال بها على بعض الآراء والاتجاهات فى العقيدة والمذاهب الكلامية للطوائف المختلفة، فإن ذلك لم يكن الطريق الأفضل الذى يشير إلى القيمة الذاتية الحقيقية. للقرآن كدليل صادق على رسالة الرسول عليه السلام. وانما كان اشبه بتوضيح مفكك للهداية الآلهية. وربما كان التفسير الموضوعى. أو استخلاص جوانب هذه الهداية بحيث تحدد أهداف الرسالة هو السبيل الأيسر للإيمان بمستواها الرفيع الذى يعجز عنه البشر. ومحاولة التفسير الموضوعى لم تحظ لديهم بمثل ما حظى عندهم. وقوفهم عند حد الآيات. والعناية بتراكيبها وارتباط اللاحق بها بالسابق. والتفسير الموضوعى. ليس تفسير جملة من الآيات. ولا استخلاص مضمونها فى وحدة قرآنية واحدة. وانما هو استخلاص مضمون الكتاب ككل من نظرة موضوعية شاملة مرة أو استخلاص موضوع محدد كمنهج القرآن فى تطوير المجتمع أو موقف القرآن من المادية مرة أخرى. أو استخلاص هدف السورة الواحدة وما عنيت بابرازه فى اطار الدعوة كلها مرة ثالثة[٨٤].

ونذكر الآن مثالاً لنا فيه كيف عالج الدكتور البهى الموضوعات التى تطرق إليها تحت إطار هذا اللون من التفسير. يقول تحت عنوان «ما تدعو إليه هداية الله وما تدعو إليه هداية الله. هو عدم الطغيان بالجانب المادى وبالمتع المادية فى الحياة وليس الحرمان من هذه المتع أو اعتزال الحياة الدنيا كلها

« كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ » [٨٥]

أى سقط فى هاوية الدنايا والمهالك».

---

(٨٤) نحو القرآن ص ٨٩ مكتبة وهبة

(٨٥) طه ١١٥

وما تدعى إليه هداية الله. هو ما يدعو إليه العقل الإنسانى عند استقلاله وعدم تبعيته للهوى. أى لو قدر للعقل الإنسانى أن يتجرد عن هذه التبعية لكان منطقه هو منطق الهداية الآلهية. ولكنه لا يستطيع أن يتجرد اطلاقاً من هذه التبعية والتجربة التى مر بها آدم وحواء. وهى التجربة فى طاعة الله عندما نهاهما عن الاقتراب من إحدى أشجار الجنة. فثبت أن العقل الإنسانى لا يقدر وحده على أن يدرك طريق السلام والأمان للذات من الزلل والأخطار.

« وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا »(٨٦).

وهكذا عالج الدكتور محمد البهى موضوعات تفرع إليها بحثه بأسلوبه الفلسفى المعروف. كما حاول اعمال عقله فى الربط بين الآيات القرآنية فى تفسيره لبعض السور التى قام بتفسيرها تحت إطار التفسير الموضوعى.(٨٧)

وبعد فنحب أن ننوه هنا إلى أنه ينبغى على الدارس والباحث فى التفسير الموضوعى أن يلم أولاً بالدراسات القرآنية الماماً واسعاً. وعليه أن يعكف على كتب علوم القرآن حتى يعرف الناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه. ولقد وضع السيوطى فى كتابه الإتقان خمسة عشر شرطاً. لابد أن تتوافر فى المفسر لكتاب الله. حتى يكون أهلا للتفسير. وأرى أن هذه الشروط لابد من توافرها أيضا فى الباحثين لهذا اللون من التفسير كما أنه لابد أن يكون من حفظة القرآن. وأن يكون على دراية تامة بالثقافة الإسلامية من فقه وحديث وتفسير ودراية تامة بأسلوب القرآن الكريم حتى لا يقع فيما وقع فيه بعض الباحثين الذين تعرضوا لأمر ليسوا له أهلاً وهذه دراسة لنشأة وأطوار ومعالم هذا اللون من التفسير. أرجو أن يكون عملى هذا خالصاً لله سبحانه وأن أكون قد وفقت لما هدفت إليه وهو إعطاء صورة شاملة عن منهاج فى تفسير كتاب الله. أرى أننا فى حاجة ماسة إلى البحث فيه والإسهاب فى موضوعاته بروح الجهاد الصادق والاخلاص لله. اسأل الله سبحانه أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا. وأنس وجودنا ودستور حياتنا ونوراً نسعى به يوم القيامة إن شاء الله.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(٨٦) طه ٨١

(٨٧) نفس المصدر ص ٦٨ ـ ٦٩